# الفصل الأول

## من تاريخ الدولة العثمانية

### أحداث مصر والشام

يحسن بنا قبل الشروع بدراسة أحداث العراق أن ندرس شيئاً من تاريخ الدولة العثمانية الذي كان له ارتباط مباشر أو غير مباشر بتلك الاحداث ، وقد خصصت لهذا الموضوع فصلين : أولهما فيما يخص أحداث مصر والشام ، والثاني فيما يخص الصراع بين القديم والجديد •

**احتلال الفرنسيين مصر :**

الواقع أن فتح القائد الفرنسي نابليون بونابرت لمصر عام **١٧٩٨**م كان من أهم الاحداث التي وقعت للدولة العثمانية في العصر الحديث وهزتها هزاً عنيفاً •

يقول المؤرخ الموصلي ياسين العمري : ان السلطان سليم الثالث لم يعلم بما جرى في مصر الا بعد شهرين ، فلما بلغه الخبر جعل يبكي على الاسلام وأحضر الوزير الاعظم عزت محمد باشا فشتمه ونفاه ، وعزل شيخ الاسلام ، واستدعى يوسف باشا فقلده الوزارة العظمى ، وخرج هذا من اسطنبول بمائة وعشرين ألف فارس(١) •

وكان السلطان قد أعلن الجهاد الديني فاستجاب الكثيرون له في الحجاز والشام وشمال أفريقيا • ففي الحجاز ضج الناس واجتمعوا في الحرم وخطب فيهم رجل من الأشراف يسمى الكيلاني يحضهم على الجهاد

---

(١) ياسين العمري (غرائب الأثر) الموصل ١٩٤٠ ـ ص٤٨ ـ ٤٩ •

فتطوع معه نحو ستمائة من المجاهدين وركبوا البحر نحو الصعيد وهم مصممون على الموت ، فانضم اليهم بعض أهل الصعيد ، وبعض الاتراك والمغاربة ، وأبدوا بسالة في محاربة الفرنسيين • وجاء من درنه في طرابلس رجل لقب نفسه بالمهدي ، وانضم اليه رجال القبائل من أولاد علي والهنادي وغيرهم ، وسار بهم الى دمنهور فأباد حاميتها الفرنسية[1] •

أما في العراق فكان صدى الحادث ضعيفاً وذلك لبعد المسافة بين البلدين من جهة ، ولانشغال العراقيين بالخطر الوهابي الذي كان يومذاك في عنفوانه من الجهة الأخرى ، فلم يتطوع منهم لمحاربة الفرنسيين سوى رجل كردي اسمه پير رجب بن حسن الزيباري العقراوي ، وكان قد رأى في المنام رسول الله يأمره بالجهاد ويبشره بأنه اذا وصل الى مصر فستُفتح بعد حصار ثلاثة أيام • وذهب الرجل مع عشرين مقاتلاً من الأكراد والتحق بالجيش العثماني فأكرمه يوسف باشا وكتب له فرماناً في أربعين آقجة من خراج الموصل[2] •

والطريف أن ياسين العمري حين يذكر نابليون بونابرت يسميه « برته بول » ويصفه بأنه مقدم الكفار وقائدهم الى الضلال ويقول في شأن اتفاق الدول الغربية ضده ما نصه : « اتفق مع السلطان سليم قرال الانكروس وقرال النمسا وغيرهم على محاربة الفرنسيين وأرسلوا العساكر في المراكب مع مراكب المسقوف وقطعوا الطرق على الفرنسيين وملكوا منهم اثنى عشر مركباً كلها ذخائر وأسلحة وبارود ورصاص ••• »[3] •

ولم ينس ياسين العمري تنبؤات الشيخ محيي الدين بن عربي حول هذا الحادث كما هي عادته في الأحداث الأخرى ، فهو ينقل عن كتاب « الشجرة النعمانية » لابن عربي قوله : « وراءات الاسماء الشريفة تشير

---

(١) عبدالعزيز الشناوي (عمر مكرم) القاهرة ١٩٦٧ ـ ص٤٩ـ٥٠ •

(٢) ياسين العمري ( المصدر السابق ) ص٥٨ •

(٣) المصدر السابق ـ ص٥١ •

برموزها الى سفك الدماء وظهور الفساد وخراب البلاد وهي بداية خراب الدنيا ••• ويجلس يوسف على سرير يوسف » • ويقول ان في هذا اشارة الى الوزير الأعظم يوسف باشا حين استعاد مصر وجلس على سرير يوسف عليه السلام[1] •

استمر احتلال الفرنسيين لمصر زهاء ثلاث سنوات ، وكان على الرغم من قصر مدته ذا أثر بالغ في المجتمع المصري ، ومن الممكن مقارنته من حيث تأثيره الاجتماعي بالاحتلال البريطاني للعراق اثناء الحرب العالميـة الأولى ، فقد كان الاحتلال الفرنسي سبباً لظهور تغير اجتماعي سريع في مصر وكان بداية لانتقالها من حياة العصور الوسطى الى حياة العصـر الحـديث •

يقول الدكتور عبدالعزيز الشناوي في هذا الصدد : « تعتبر هـذه المحاولة أول غزو عسكري أوربي مسيحي في التاريخ الحديث لبلد عربي اسلامي من بلاد الدولة العثمانية • ولكن هذا الغزو سبقته سيطرة الدول الاستعمارية الكبرى : بريطانيا وفرنسا وهولندا على دول وامارات اسلامية في أواسط آسيا وجزر الهند الشرقية والهند ، غير أن هذه السيطرة المبكرة لم تمس قلب العروبة كما فعلت حملة الجنرال نابليون على مصر »[2] •

**ظهور محمد علي :**

عندما انسحب الفرنسيون من مصر في عام ١٨٠١م سادت في القاهرة فترة من الفوضى والتنازع على الحكم دامت أربع سنوات ، وفي خلال تلك الفترة بدأت بالظهور شخصية رجل قدّر له أن يكون من أعظم الرجال الذين حركوا التاريخ العربي في العصر الحديث ــ هو محمد علي باشا الملقب بـ « الكبير » •

---

(١) المصدر السابق ــ ص٥٧ •

(٢) عبدالعزيز الشناوي ( المصدر السابق ) ص٣٤ •

كان محمد علي من أصـــل ألباني وقد ولد في بلـدة « قوله » في مقدونيا عام ١٧٦٩م — وهو نفس العام الذي ولد فيه نابليون — وعندما بلغ الرابعة من عمره مات أبواه معاً فعاش يتيماً يعاني الذل والحرمان ، واشتغل بالجندية في أيام شبابه كما اشتغل بالتجارة[١] • وفي عام ١٨٠١م حين وصلت قوات عثمانية الى أبي قير في مصـــر لمحاربة نابليون كان محمد علي من جملة الضباط الصـغار فيها وكاد يغـــرق في البحر اثناء المعركة[٢] ، ولو أنه مات آنذاك لربما سار التاريخ في مصر والبلاد العربية سيرة أخرى غير السيرة التي عرفناها ! •

تسلم محمد علي ولاية مصر في عام ١٨٠٥م واستمر يحكم مصـــر طيلة ثلاثة وأربعين عاماً • والمعروف عنه أنه كان في حكمه جائراً ماكراً شديد القسوة ولكنه كان في الوقت نفسه بانياً من الطراز الأول ، فهـــو الذي اسس مصر الحديثة وجعلها من الناحية الحضارية والثقافية أرقى البلاد العثمانية جميعاً • يقول عنه المؤرخ الألماني بروكلمان : « انه عـلى الرغم من أخطائه وأنانيته يعود اليه الفضل في فتح مصر لتأثيرات الحضارة الأوربية »[٣] •

والغريب في هـــذا الرجل أنه كان أمياً ولم يتعلم القراءة الا في الاربعين من عمره ، غير أنه كان مولعاً بالكتب تُقرأ عليه ، فقد تُرجمت له وقُرأت عليه بعض الكتب عن نابليون ، كما استنســـخت له مقدمة ابن خلدون عن مخطوطات مغربية قديمة ثم ترجمت الى اللغة التركية لكي

---

(١) جرجي زيدان ( تراجم مشاهير الشرق ) بيروت بدون تاريخ — ج١ ص١٩ — ٢٢ •

(٢) ج• كرســتوفر هيرولد ( بونابرت في مصـــر ) ترجمة فؤاد اندراوس — القاهرة ١٩٦٧ — ص٤٣٦ •

(3) Carl Brochelmann (History of The Eslamic Peoples ) New York 1947—P. 350.

يفهمها ، وكان وزيره أرتين يترجم له عن الايطالية مؤلفات مكيافلي بمعدل عشر صفحات في اليوم الواحد • يقول أرتين : « أما في اليوم الرابع فاستوقفني قائلاً : لقد قرأت كل ما أعطيتني اياه من مكيافالي ، فلم أعثر على شيء جديد يذكر في صفحاتك العشر الأولى الا أنني كنت آمل أن تتحسن الحال • لكن الصفحات العشر الأخرى لم تكن أفضل • أما الأخيرة فليست سوى مجردعموميات • اني أرى بوضوح أنه ليس لدى مكيافالي ما يمكنني أن أتعلمه منـــه • فأنا أعرف من الحيل فوق ما يعرف ••• فلا داعي للاستمرار في ترجمته »[1] •

اعتمد محمد علي في الشـؤون الادارية عـلى الاوربيين والاتراك والشراكسة والالبانيين والاكراد، وكان رأيه في المصريين أنهم لا يصلحون الا لحمل الاثقال وسوق الحمير • يقول الدكتور حسين فوزي النجار : « ولا نغمط الرجل حقه ، فقد أقام بناء دولة حديثة ، وحمل المصريين كرها على القيام بالدور العظيم في هذا البناء دون أن يعدهم له أو يقوم بأقل جهد في تقويم روح الشعب لادراك آماله ومراميه ، وحكم البلاد حكماً شرقياً مستبداً باسلوب العثماني الماكر الطموح الحاذق في تدبير المؤامرات، الراغب في التوسع والسلطان، فعاش بمعزل عن سواد الناس بعد أن أبعدهم عن تفكيره ، ولم يسع الى اشراكهم في مسؤولية العمل العظيم الذي يقوم به ، بل لعله كان يراهم دون ذلك ، وما عليهم الا أن يمدوه بحاجتـه من المال والعمال دون أن يكون لهم رأي فيما يعمل ، وكأن مصر لم تكن غير مزرعة يستثمرها لحسابه على أحدث الأساليب وليس منها عائد الا له وحده ، وللزارع الكفاف أو ما يقيم الأود فحسب ••• »[2] •

---

(١) البرت حوراني ( الفكر العربي في عصر النهضة ) ترجمة كريم عزقول ــ بيروت ١٩٦٨ ــ ص٧٢ ــ ٧٣ •

(٢) حسين فوزي النجار ( رفاعة الطهطاوي ) القاهرة بدون تاريخ ــ ص٢٤ ــ ٢٥ •

يرى بعض الباحثين الاجتماعيين أن محمد علي انما تمكن من بناء الدولة لانه لم يشرك رعاياه في مسئولية الحكم ، ولو كان قد أشركهم فعلاً لعجز عن القيام بما قام به • ففي رأي هؤلاء الباحثين أن جماهير الناس في مثل تلك المرحلة الاجتماعية التي ظهر فيها محمد علي ليس في وسعهم أن يفهموا الأمور على حقيقتها وربما أثرت فيهم الاشاعات والاساطير والأوهام فجعلتهم يندفعون بحماس نحو ما يضرهم من حيث يشعرون أو لا يشعرون !

كان من أوائل الأمور التي أهتم بهــا محمد علي هو « تحديث » الجيش المصري أي تحويله الى النظام الحديث في التدريب والتسليح • يجب أن لا ننسى ان الجنود في مصر يومذاك كانوا يسيرون على نمط ما اعتادوا عليه وتوارثوه من الأسلاف فلم يكونوا يعرفون الخطوط أو المربعات أو غيرهــا من النظم العسكرية الحديثة ، بل كانوا عبارة عن « وجاقات » ـ أي فرق ـ ولكل فرقة منهم قائد ، فاذا نزلوا الى ساحة القتال ركب كل واحد منهم فرسه واستل سيفه أو بندقيته أو رمحه وهجم على ما يتراءى له[١] • وكان محمد علي قد شاهد الجنود الفرنسيين وأعجب بنظامهم وهو النظام الذي وضعه نابليون ودوخ به العالم ، فعزم محمد علي أن يبني جيشه على أساسه •

وفي عام ١٨١٩م جاء الى مصر ضابط فرنسي قدير يدعى الكولونيل سيف ، وكان من رجال نابليون ثم أخرج من الجندية بعد سقوطه ، فعهد اليه محمد علي بتدريب جنوده على النظام الحديث [٢] ، وقد أخلص

---

(١) جرجي زيدان ( المصدر السابق ) ج١ ص٢٣٥ •

(٢) عندما دخل هذا الضابط في خدمة محمد علي أعلن اسلامه وصار يدعى ( سليمان باشا الفرنساوي ) ، وهو أحد أجداد الملك فاروق من امه • وقد أطلق اسمه على شارع مهم من شوارع القاهرة هو الشارع الذي يعرف الان باسم « طلعت حرب » ، وكان له تمثال فيه •

هـــذا الرجل في خدمة محمد علي وجعل جيشـــه من أكفأ الجيوش في الشرق وربما أكفأها على الاطلاق •

**محاربة الوهابيين :**

كان السلطان محمود الثاني الذي تولى العرش العثماني منذ عـام **١٨٠٨**م يرسل الكتاب تلو الكتاب الى محمد علي باشا طالباً منه محاربـة الوهابيين وانقاذ الحجاز من أيديهم • والظاهر أن محمد علي كان في قرارة نفسه راغباً في اداء هذه المهمة التي كلفه بها السلطان اذ كان يعتقد أن العناية الآلهية قد سخرته لقتال الوهابيين الذين هم في نظره ونظر السلطان خارجين عن الاسلام(١) •

جهز محمد علي حملة قوية بقيادة ابنه الاكبر طوسون باشا ، وفي عام **١٨١١**م عبرت الحملة البحر الأحمر الى ميناء ينبع ثم احتلت المدينـة ومكة • وكان الوهابيون ينسحبون من أمامها حتى اذا حل صيف **١٨١٢**م كروا عليها وهزموها هزيمة منكرة مما اضطر محمد علي باشا أن يذهب بنفسه الى الحجاز للاشراف على قيادة الحملة •

يروي المؤرخ المصري عبدالرحمن الجبرتي في تعليل تلك الهزيمـة عن أحد قواد الحملة أنه قال : « كيف كنا نطمع في النصر وأكثر عسكرنا على غير ملة الاسلام وفيهم من لا يدين بدين ، وكان معنا صناديق الخمر ، ولا تسمع في خيامنا أذانا ، ولا تقام بها صلاة ، ولا تخطر ببالهم شـعائر الدين ، مع أن القوم كانوا اذا حل وقت الصلاة أذن المؤذنون وانظمـوا صفوفاً خلف امام واحد في خشوع وخضوع ، كل ذلك وجنودنا يعجبون من فعلهم هذا لأنهم لم يسمعوا به »(٢) •

---

(١) بيير كربتيس ( ابراهيم باشا ) ترجمة محمد بدران ــ القاهرة ١٩٣٧ ــ ص٢٠ •

(٢) ابراهيم جلال بك ( من يوميات الجبرتي ) القاهرة بدون تاريخ ــ ص ١٥٨ •

عاد محمد علي الى مصر عندما بلغه فرار نابليون من منفاه في جزيرة « البا » ، فقد ظن أن نابليون سيعود الى غزو مصر مرة ثانية • وفي عام ١٨١٦م أرسل محمد علي ابنه الثاني ابراهيم باشا الى الحجاز لقيادة الحملة بدلاً من طوسون باشا الذي كان قد مات من جراء حمى أصابته •

كان ابراهيم باشا عندما تولى قيادة الحملة ضد الوهابيين في السابعة والعشرين من عمره ، ومن طريف ما يروى عنه أنه حين وصل الى المدينة قبل بدء القتال وقف عند قبر النبي وأخذ يتوسل به متضرعاً أن يساعده على قتال الوهابيين « العصاة » ، وقد تملكه الحماس الديني آنذاك فأقسم أن يعتق جميع عبيده السود والبيض معاً ، وأن لا يذوق الخمر بعد الآن • ويقال انه عند عودته الى المعسكر أمر بأن ترمى كل زجاجات النبيذ الموجودة في مخازن الميرة الى النار[1] •

استطاع ابراهيم باشا أن يهزم الوهابيين وأن يطاردهم في صحرا نجد حتى وصل الى عاصمتهم « الدرعية » • وبعد أن حاصر « الدرعية » بضعة أشهر تمكن من احتلالها في ايلول عام ١٨١٨م ، ثم أسر أميرهم عبدالله بن سعود ، فكان انتصاره عليهم حاسماً •

يمكن القول ان هذا الانتصار الذي ناله ابراهيم باشا كان أول حدث من نوعه في تاريخ الصحراء العربية ، اذ لم يكن قبل ذلك في مقدور أي جيش حضري أن يتغلغل في تلك الصحراء فاتحاً وأن يهزم فيها جموع البدو المتمرسين على القتال فيها والعارفين لمسالكها •

يعزو المؤرخ العراقي ابن سند البصري هذا الانتصار الى المدافع والآلات الحربية الجديدة التي كان الجيش المصري يستعملها في القتال ، فهذه الاسلحة تحتاج كما يقول ابن سند الى علوم وصناعات وهندسة يجهلها البدو ، وهو يصور لنا كيف استولى الرعب على البدو حين

---

(١) بيير كوبنتيس ( المصدر السابق ) ص٢٩ •

سمعوا أصوات المدافع لأول مرة في حياتهم وهي تدوي بين الجبال ، فقد كان لها هدير مخيف لم يعهدوا له مثيلاً من قبل[1] .

ولما وصلت أنباء انتصار الجيش المصري الى البلاد العثمانية عم الفرح فيها ، لا سيما في العراق ، وجرى الاحتفال بالنصر في كل مكان . وكذلك فرحت ايران وأرسل الشاه فتح علي سيفاً مرصعاً ثميناً الى ابراهيم باشا ، كما أرسل اليه ابن سند البصري من العراق قصيدة يمدحه فيها ويحرضه على ذبح الوهابيين كلهم فلا يستثني منهم أحداً حتى الاطفال على اعتبار أنهم لابد أن يكونوا خبيثين ما دام آباءهم كانوا كذلك[2] .

وقد وصف التاجر يوسف بن ديمتري المقدسي بلهجته العامية ما جرى في البصرة من احتفال في تلك المناسبة فقال ما نصه : « وفي ٢٥ ب – أي رجب – نهار الجمعة وصل للبصرة بيرقدار أسعد باشا ومعه صورة فرمان الدولة العلية ودخل في هلاي وتلى الفرمان باسم محمد سعيد باشا والي بغداد وبصرة وشهرزور وبعده بيورلدي من سعادته بتقرير المتسلمية لسليمان بك . وبعده قروا فرمان من الدولة بخصوص انتصار محمد علي باشا والي مصر على الوهابي وبعده بيورلدي بهذا الخصوص وأنه يصير دعا للسلطان محمود خان وصار شنك في الصراي . ومن البلدة والمراكب رموا أطواب وسليمان ( بك ) أمر على الشنك سبعة أيام الصبح والعصر ... »[3] .

**مؤتمر الدرعية :**

أراد ابراهيم بعد انتصاره على الوهابيين أن يعقد في الدرعية مؤتمراً

---

(١) عثمان بن سند البصري ( مطالع السعود ) اختصار أمين الحلواني – القاهرة ١٣٧١هـ – ص٨٧ ، ٩٦ .

(٢) ابراهيم الوائلي ( الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر ) بغداد ١٩٦١ – ص١٣٣ .

(٣) يعقوب سركيس ( مباحث عراقية ) بغداد ١٩٤٨ – ج١ ص٢٢ .

بين علمائهم وعلماء أهل السنة ، وهو مؤتمر يشبه من بعض الوجوه مؤتمر النجف الذي عقده نادر شاه في عام ١٧٤٣م لفض الخلاف بين الشيعة والسنيين ، غير أن مؤتمر النجف انتهى بالاتفاق بين علماء الفريقين[١] أما مؤتمر الدرعية فقد انتهى بذبح العلماء الوهابيين جميعاً .

استدعى ابراهيم باشا اليه علماء الوهابيين وكان عددهم خمسمائة ، فلما مثلوا بين يديه خاطبهم قائلاً : انه يريد أن يمحو أسباب الخلاف المستحكم بين عقائدهم وعقائد السنة ، وانه أحضر معه من القاهرة جماعة من العلماء السنيين ويود أن يجمع بينهم ليبحثوا الأمر أمامه ويتجادلوا فيه .

انعقد الاجتماع في جامع الدرعية واستمر ثلاثة أيام متوالية ، وكان ابراهيم باشا جالساً يصغي الى الجدال الذي دار بين الفريقين من غير أن يبدي أية ايماءة تدل على تحيّزه لهذا الفريق أو ذاك . وظل يشرف على نظام المؤتمر بصمت فلم يقاطع متكلماً ولم يرفع صوته على أحد ، فلقد كان وجوده كافياً لأن تسري بين المتجادلين روح الحرية والأدب[٢] .

وفي اليوم الرابع أقفل ابراهيم باشا باب الجدل بسؤال وجهه الى كبير العلماء الوهابيين اذ قال له : « هل تؤمن بأن الله واحد وأن الدين الصحيح واحد هو دينكم ؟ » . فلما أجاب العالم الوهابي بكلمة « نعم » رد عليه ابراهيم باشا بلهجته القاهرية قائلا : « ما رأيك في الجنة أيها الخنزير وما عرضها ؟ » ، وكان ابراهيم باشا يقصد من سؤاله هذا أن يشير الى ما جاء في القرآن من أن الجنة عرضها السموات والأرض ، ولم يستطع العالم الوهابي أن يعترض على ذلك طبعاً ، وعند هذا قال ابراهيم باشا : « اذا كان عرضها السموات والارض كما تقول ، واذا وسعتك أنت

---

(١) انظر تفاصيل مؤتمر النجف في الجزء الاول من هذا الكتاب ـ الفصل الخامس .

(٢) بيير كربتيس ( المصدر السابق ) ص٤٠ .

وأمثالك رحمة الله فدخلتم الجنة ، ألا تكفي شجرة واحدة من اشجارها لأن تظلّلكم جميعاً ؟ فلمن اذن بقية الدار ؟ أسْألك الجواب » • فسكت العالم الوهابي وأصحابه ولم يستطيعوا التقدم بأي جواب • فلما تبين لابراهيم باشا أنه قطع حجتهم أمر جنوده بقطع رقابهم جميعاً • ولم تنقض سوى دقائق معدودة حتى كان الجميع في عداد الموتى ودفنت جثثهم في ساحة الجامع[1] •

**حرب اليونان :**

لم تكد الدولة العثمانية تستريح من مشكلة الوهابيين حتى ظهرت لديها مشكلة أخرى هي مشكلة اليونان • ففي أوائل نيسان من عام ١٨٢١م بدأت بوادر ثورة في اليونان تطالب بالاستقلال ، وهي الثورة التي عرفت في التاريخ العثماني باسم « حرب المورة » •

يقول المؤرخ العراقي ابن سند البصري عن ثورة اليونان ما نصه : « ودخلت سنة ١٢٤٠ وفيها عصت بلاد المورة على الدولة العلية ••• وقتلوا أكثر المسلمين الذين كانوا في تلك البلاد متولدين ومتوطنين منذ قرون طويلة ، وكان المسلمون هم أهل الأراضي والأملاك والمزارع ، وكان نصارى المورة بصفة خدامين عندهم ، فلا زال أمر النصارى يتقوى بواسطة الكنائس ورؤسائها لما يجتمعون في أعيادهم ومواسمهم وينصحون أمتهم بالاستقلال ، وشرعوا في تعليم أولادهم الحروب والرمي بالرصاص ، وأتقنوا أسباب الشجاعة بأنواعها سراً ، وتعلموا الصنائع التي يتولد منها الغنى ، وأرسلوا أولادهم الى بلاد أوربا لتعليم الصنائع ، والمسلمون في غاية الغفلة والبلاهة يتركون تربية أولادهم للنساء أو للمخاصي المعبر عنهم بالأغوات، فلذلك ينشأ الأولاد وعقولهم مثل عقول تلكم المخاصي »[2]•

---

(١) المصدر السابق ــ ص٤٠ ــ ٤١ •

(٢) عثمان بن سند البصري ( المصدر السابق ) ص١٥٤ ــ ١٥٥ •

عندما بدأت الثورة في اليونان هبت الشعوب الاوربية كلهما تعمل على تأييدها واعتبرتها كأنها المثل الاعلى للثورة ضد الظلم والاحتلال الاجنبي والاستبداد الغاشم ، وتشكلت في مختلف البلدان الأوربية جمعيات سميت بـ « جمعيات محبي اليونان » وأخذت تجمع المال من أجل الثوار وترسل اليهم المتطوعين والأسلحة والذخائر ، وذهب الشاعر البريطاني المعروف اللورد بيرون يحارب في صفوفهم حتى قتل أخيراً في احدى المعارك ، كما ذهب اليهم من امريكا ابن واشنطن ، ونظم فيكتور هوغو الأديب الفرنسي المشهور قصائد حماسية تدعو الشبان الى الانضمام الى الثورة ، فاستجاب لها الكثيرون منهم[١] . يقول المؤرخ البريطاني فيشر : عندما وصل نبأ مقتل اللورد بيرون الى بريطانيا انتشر الحماس الرومانطيقي فيها لتأييد الثورة اليونانية انتشاراً واسعاً في الشوارع والحانات ، واعتبر بيرون شهيد الحرية اليونانية ، وصار اسم اليونان كأنه تعويذة سحرية[٢] .

أما في البلاد العثمانية فكان الناس ينظرون الى الثورة من وجهة نظر مناقضة لتلك التي كانت في أوربا ، فقد صارت « حرب المورة » في نظرهم كأنها مؤامرة من قبل الأوربيين للقضاء على الاسلام ، فأعلن الجهاد في كل مكان ، وانطلق الخطباء في المساجد يدعون المسلمين للدفاع عن دينهم ، وأخذ الشعراء ينظمون القصائد الحماسية في سبيل ذلك . خذ العراق مثلاً فهو على الرغم من بعده عن اليونان تأثر بما جرى فيها فأعلن فيه النفير العام وأهيب بالمسلمين جميعا ـ الشيعة وأهل السنة على السواء ـ أن ينهضوا لمكافحة عدو الله والاسلام وأن يقدم كل فرد منهم ما يستطيعه[٣] .

---

(١) محمد فريد بك ( تاريخ الدولة العلية العثمانية ) القاهرة ١٩١٢ ـ ص٢٠٩ .

(2) H.A.L. Fisher ( A Histary of Europe ) London 1944 — P. 879.

(٣) عبدالعزيز نوار ( داود باشا ) القاهرة ١٩٦٨ ـ ص٢٤٤ .

وانبرى الشعراء ينظمون القصائد في ذلك[1] .

دامت الثورة بضع سنوات أريقت فيها دماء كثيرة ، ففي بداية الثورة كان الثوار اليونانيون قد هجموا على الاتراك الساكنين بينهم فذبحوهم عن بكرة أبيهم بما فيهم النساء والاطفال وحين وصل خبر هذه المذابح الى اسطنبول والمدن التركية الأخرى هب الاتراك لينتقموا لاخوانهم من اليونانيين الساكنين في بلادهم ، ووقعت من جراء ذلك مذابح في اسطنول وأزمير وسلانيك وقبرص لا تقل بشاعة عن تلك التي وقعت في بلاد اليونان[2] . يقول المؤرخ الأمريكي شفيل : ان هذه المذابح دلت على أن الاتراك واليونانيين جميعاً متوحشون وأن القتال بينهم كان قتال افناء[3] .

ويروى المؤرخ الشامي محمد كرد علي : أن الدولة العثمانية أرادت أن تقتل الطائفة الارثوذكسية في الشام انتقاماً لما فعل أبناء مذهبهم في اليونان ، فأمرت والي دمشق بأن يقتلهم ولكن الوالي كان عاقلاً على ما يظهر فأحال القضية على مجلس دعا اليه الاعيان وأرباب الشأن ، وكان جواب هؤلاء : « ليس عندنا مفسدون من النصارى ، وجميعهم ذميون وعاملون بشروط الذمة لا تجوز أذيتهم ، والرسول أوصانا بالذميين ، ونحن لا نقدر أن نتحمل تبعة قتلهم » . ثم كتبوا محضراً بذلك ، ونجا النصارى[4] .

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن الصحف الأوربية كانت تتجاهل أخبار المذابح الفضيعة التي قام بها المسيحيون في اليونان ضد المسلمين بينما

---

(١) ابراهيم الوائلي ( المصدر السابق ) ص٢٠٧ .

(2) Eversley ( The Turkish Empire ) London 1922 — P. 262.

(3) Ferdinand Schevill ( The History of The Balkan Peninsula ) New York 1922 — P. 333.

(٤) محمد كرد علي ( دمشق ) القاهرة بدون تاريخ — ص٤٥ .

هي كانت تبالغ بحنق شديد في وصف المذابح الانتقامية التي قام بها المسلمون[1] . والواقع ان هذا أمر لا غرابة فيه اذ هو منسجم مع طبيعة العقل البشري ، وقد فعلت الصحف العثمانية من جانبها مثلما فعلت الصحف الأوربية ، ولهذا كانت أخبار المذابح تروى في أوربا بعكس ما كان يروى في البلاد العثمانية . ان هذا يمثل لنا نموذجاً واقعياً لما يحدث دائماً بين البشر من تعاكس في وجهة النظر حول القضية الواحدة حيث يجزم كل فريق منهم أن الحق معه وحده .

وفي عام ١٨٢٤م ، عندما شعر السلطان محمود بعجز جيوشه عن قمع الثورة أرسل الى محمد علي باشا والي مصر يطلب منه المعاونة . وفي ١٦ تموز من عام ١٨٢٤م تحرك أسطول مصري من ميناء الاسكندرية وهو يحمل سبعة عشر ألف جندي بقيادة ابراهيم باشا متوجها نحو اليونان ، وقد استطاعت القوات المصرية والعثمانية أن تنزل بالثوار اليونانيين هزائم فادحة . وفي حزيران من عام ١٨٢٧م دخلت تلك القوات مدينة أثينا بعد حصار طويل واحتلت قلعتها المشهورة « أكربول » .

وفي الوقت التي كانت فيه الثورة اليونانية على وشك أن تلفظ أنفاسها الأخيرة ، حدث حادث في خليج نافارينو حوّل الهزيمة من جانب الثوار الى الجانب الآخر . ففي ٢٠ تشرين الأول ظهرت سفن روسية وفرنسية وبريطانية ، وعلى حين غرة انطلقت القنابل منها نحو السفن المصرية ، وفي خلال ساعات معدودة تحطم نصف الاسطول المصري ، واضطر ابراهيم الى الانسحاب بالباقي منه نحو مصر مدحوراً .

اعتذرت بريطانيا للسلطان محمود بأن واقعة نافارينو كانت غير مناسبة ، أو غير مقصودة ، وكان الأحرى أن يقال عن الاعتذار نفسه انه غير مناسب فان واقعة نافارينو انتهت بانتصار الثورة اليونانية وبنيل اليونان

---

(1) William Yale (The Near East) Ann Arbor 1958— P. 35.

استقلالها . يقول المؤرخ شفيل : « ان مدافع نافارينو كانت بمثابة تحية من أوربا أطلقت احتفاءاً بمولد دولة مسيحية جديدة »[1] .

**محمد علي يعلن العصيان :**

أخذ محمد علي باشا يطالب السلطان محمود بولاية الشام[2] مكافأة له على خدماته التي قدمها للدولة في حرب الوهابيين واليونانيين ، ولكن السلطان رفض طلبه أو ماطل فيه مما أثار حنق محمد علي وجعله يعمد الى أخذ ولاية الشام بالقوة بدلاً من أخذها بالرضا والتفاهم .

كان محمد علي باشا واثقا من أن جيشه المدرب تدريباً حديثاً قادر على مغالبة جيش السلطان وكسره ، فأعد حملة قوية ـ برية وبحرية ـ لفتح بلاد الشام بقيادة ابنه ابراهيم باشا . وقد استطاعت الحملة في بداية أمرها أن تستولي على غزة ويافا والقدس من غير مقاومة .

كانت العقبة الكبرى التي وقفت في وجه الحملة المصرية هي قلعة عكا تلك القلعة التي صمدت في وجه نابليون وأعجزته . بدأ ابراهيم باشا بحصار القلعة وأخذ يمطرها بوابل من القنابل ، قيل انه ألقى عليها في يوم واحد ثلاثة آلاف قنبلة وعشرة آلاف كرة من الحديد ، ولا تزال بعض كرات الحديد باقية في عكا يستعملها الاهالي لرص الطرقات[3] .

صمدت عكا للحصار ما يزيد على ستة أشهر ، أي أنها صمدت لحصار ابراهيم باشا أكثر من ثلاثة أضعاف الزمن الذي صمدت فيه لحصار نابليون ، وكان ابراهيم باشا يخشى أن يعجز عن فتحها ثم يعود

(1) Ferdinand Schevill ( op. cit. ) P. 338.

(٢) حين نذكر اسم « الشام » في هذا الكتاب نقصد به سوريا الطبيعية التي تشمل اليوم سوريا ولبنان والأردن وفلسطين ، فقد كانت هذه البلاد في العهد العثماني تعتبر كأنها قطر واحد .

(٣) داود بركات ( البطل الفاتح ابراهيم ) القاهرة بدون تاريخ ـ ص ١٠ .

الى مصر خائبا كما فعل نابليون قبله • يقول المؤرخ كربتيس : كان الاسبوع يمر تلو الاسبوع وقلعة عكا مستعصية على الجيش المصري وهو لا يستطيع أن ينال منها منالاً ، فقلقت الأفكار في الاسكندرية ومصر ، وقلقت أفكار الشعب المصري حتى أن محمد علي أصدر أوامر مشددة تحرم اذاعة أنباء الحرب في مصر ، وفي أواخر شهر أذار من عام ١٨٣٢م قطعت رقاب أربعة رجال من سكان القاهرة وعلقت على جثة اثنين منهم ورقة كتب عليها : « هذا جزاء الذين لا يستطيعون أن يمسكوا لسانهم » ، وفي السابع من شهر نيسان عرضت على الجمهور جثتان أخريان كتب عليهما : « هذا هو العقاب الذي يحل بمن يتقوّلون السوء عن الحكومة خفية »[١] •

وفي فجر ٢٧ أيار قام الجيش بهجوم على عكا من ثلاثة جهات ، واستمر الهجوم متصلاً حتى الظهر ، فاستطاع الجيش أن يحتل أحد خانات البلدة ، ولم يجد الوالي عبدالله باشا مناصا من التسليم بعد أن هلك من جنوده تسعة أعشارهم أو أكثر • وعندما جيء بهذا الوالي الى ابراهيم باشا قال له : « لا تعاملني يا باشا معاملة الحريم فان دفاعي يبرهن على الضد، وكل أخطائي أني اعتمدت على الباب العالي الذي لا يزيد شرفه في نظري على شرف المومس ، ولو أني عرفت ذلك لاتخذت الحيطة ولما كنت اليوم ملقياً بين يديك » • فطيّب ابراهيم باشا خاطره وأرسله مكرماً الى أبيه محمد علي ، وقد احترمه هذا بدوره ثم أطلق سراحه وأعاد اليه جميع الكنوز التي كان يملكها[٢] •

وحين وصل البريد الى مصر بنبأ سقوط عكا صدرت الأوامر باطلاق المدافع في جميع المدن والبنادر ثلاث دفعات يومياً لمدة ثلاثة أيام اعلاناً

---

(١) بيير كربتيس ( المصدر السابق ) ص ١٥٨ ــ ١٥٩ •

(٢) داود بركات ( المصدر السابق ) ص١٧ ، ٢٦ •

للفرح العام ، وصدر العفو عن المسجونين والمنفيين ما عدا القاتل وقاطع الطريق • ومن الجدير بالذكر أن حكومة مصر احتفلت في عام ١٩٣٢م بمناسبة مرور مائة عام على فتح عكا ، وجرى الاحتفال في ميدان الاوبرا قرب تمثال ابراهيم باشا حضره الملك فؤاد ، ونشرت جريدة الاهرام في حينه اقتراحاً باطلاق اسم ابراهيم باشا على الميدان وعلى الشارع الذي يمر به ، وقد أخذت الحكومة بهذا الاقتراح •

**السلاح الديني :**

في الوقت الذي كانت فيه عكا ما تزال صامدة للحصار أمر السلطان محمود بعقد مجلس الشرع للنظر في عصيان محمد علي والحكم عليه بما تقتضيه أوامر الشريعة • واجتمع المجلس في ٢٣ نيسان وهو مؤلف من امام جامع أيا صوفيا ، وامام جامع السلطان أحمد ، وثلاثة من المفتين ، وأربعة عشر من قضاة العسكر ، واثني عشر من قضاة المحاكم ، وتسعة من ائمة السراي والمدارس الشاهانية • وكان السؤال الأول الذي وجه اليهم هو : « ما الذي جاء به الشرع الحنيف من الأمر بطاعة أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين ؟ » فكان جوابهم عليه : « قد فرضت له الطاعة والوقوف عند حد أوامره جهد الاستطاعة » •

ثم وُجّه اليهم السؤال الثاني وهو : « ما الذي جاء به الشرع الشريف في عقاب العامل المارق عن طاعة خليفته وسلطانه الذي أحسن اليه وأتم نعمته عليه فطغى وتجبر ودس الدسائس وأقام الأحقاد وأيقظ الفتنة الراكدة وعمل على تمزيق ملك سلطانه فركب متن الجور والعسف وأراق الدماء هدراً وخرب ديار المسلمين ولم يرض بالطاعة للدين ولا عمل بسنة سيد المرسلين ؟ » • فكان جوابهم : « يجرّد من سائر رتبه ووظائفه ولا يعهد اليه بأمر من أمور المسلمين ثم يحل به القصاص ويلقى لوحوش البرية أو الى طيور الفلا ، وهذا جزاؤه في الدنيا ، وفي الآخرة الخزي

والنار الآكلة » • وكان السؤال الثالث والأخير اليهم هو : « هل يكون الخليفة مسؤولاً أم ذلك المارق أمام الله والناس ؟ » • فكان جوابهم : « لا جناح على الخليفة ولا تثريب فانه قام بما فرضه الشرع الشريف وجاءت به أحكام الدين المنيف » •

وبناءاً على ذلك أصدر المشايخ حكماً هذا نصه : « حيث ثبت خروج محمد علي وولده ابراهيم عن طاعة سلطانهما فحق العقاب عليهما كما حق على سائر من حذا حذوهما بشق عصا طاعة أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين وبذلك قضى الشرع الشريف أولا تجريد محمد علي وولده ابراهيم من جميع الرتب والمناصب الديوانية وألقاب الشرف الممنوحة لهما من لدن أمير المؤمنين ثم بقصاصهما مع سائر من شاركهما في هذا العصيان والخروج عن طاعة السلطان » • وقد أرسل هذا الحكم الى محمد علي مع قومندان احدى السفن البريطانية ، فلما وصل اليه استهتر به وتهكم عليه وقال في محضر من قناصل الدول : « هل يسمح السلطان لنفسه أن يحاربني باسم الدين وأنا أحق منه بمهبط الدين والوحي لأني أنقذت الحرمين الشريفين وأعدت للدين سلطانه ، وأنا الآن أحكم مكة المكرمة والمدينة المنورة » •

واجتمع علماء الأزهر فوضعوا رداً شرعياً على الحكم الذي أصدره مشايخ اسطنبول • وأذيع الرد في جميع الأقطار • والظاهر أن بعض القناصل تحدثوا الى محمد علي في موضوع الحكم الشرعي وهل يجوز لعلماء الأزهر الرد عليه ، فكان جواب محمد علي : أن علماء الازهر أحفظ للدين وأعرف بأحكام القرآن الكريم من جميع علماء الاسلام ، ثم قال محمد علي : « أنا لم أطلب منهم شيئاً ولكن ما فعلوه انما هم فعلوه دفاعاً عن حرمة الدين من أن تنتهك »[1] •

ان هذه المبارزة بالأحكام الشرعية بين السلطان ومحمد علي تذكرنا بما كان يقع في تاريخ الاسلام على توالي العصور من مجادلات ومنازعات

---

(١) المصدر السابق ـ ص٢٦ ـ ٣٥ •

« كلامية » ، إذ كان كل فريق من المسلمين يأخذ من الشريعة الأدلة التي ينتفع بها في حرب خصومه ويتجاهل ما سواها •

**فتح بلاد الشام :**

كان سقوط عكا ايذاناً ببدأ الزحف الخاطف الذي قام به الجيش المصري في بلاد الشام حيث أخذت المدن الشامية تسقط في يده تباعـاً ، ثم اجتاز الجيش جبال طوروس ووصل بزحفه الى مسافة غير بعيدة عن اسطنبول حتى خيّل للسلطان محمود من شدة فزعه أنه على وشـك أن يسمع هدير المدافع المصرية من الجانب الآخر من مضيق البوسفور • وكان ذلك كله قد حدث خلال أشهر معدودة مما أثار فزعاً هائلاً في عواصم الدول الأوربية الكبرى اذ حسبوا أن اسطنبول ستسقط قريباً وأن تراث « الرجل المريض » سيقع في يد محمد علي بدلاً من الوقوع في أيديهم كما كانوا يتوقعون •

ومما زاد في فزع الدول الأوربية أن السلطان محمود كان في لحظة من لحظات الفزع قد استنجد بروسيا من غير أن يستشير وزراءه ، فأرسلت روسيا ثماني بوارج من اسطولها الى البوسـفور ووقفت البوارج حيـال اسطنبول بحجة الدفاع عن السلطان وعن دولته التي كانت على وشـك الانهيار(١) •

كان ابراهيم باشـا يريد مواصلة الزحف واحتلال اسطنبول لكي يضع الدول الأوربية أمام الأمر الواقع ، أما أبوه محمد علي فكان يريد وقف الزحف والتروي • يبدو أن ابراهيم كان ينظر في الامر نظرة الرجل العسكري الذي لا يهمه سوى النصر ولا يبالي بالعواقب ، أي أنـه كان يسير على مبدأ « اعمل أولاً ثم فكر » ، اما محمد علي فكان ذا نظـرة سياسية حيث يسير على المبدأ القائل بان التفكير يجب أن يسبق العمل •

---

(١) بيير كربتيس ( المصدر السابق ) ص١٨٧ ـ ١٩٠ •

وأخذ محمد علي يرسل الى ابنه ابراهيم المرة بعد المرة يأمره بالتوقف ، فكان ابراهيم يطيع أباه على مضض اذ كان موقناً أن اسطنبول أصبحت في متناول يده وهو قادر على اقتطافها متى شاء .

وبعد مفاوضات ومناورات دبلوماسية بذل فيها سفراء الدول الأوربية جهوداً كبيرة تم الصلح بين الفريقين في آخر نيسان من عام ١٨٣٣م ، وهو الصلح المعروف باسم كوتاهية المدينة التركية التي وصل اليها زحف الجيش المصري ، وكان أهم بنود الصلح هو أن يتولى محمد علي حكم الشام علاوة على مصر بشرط أن لا تكون ولاية الشام وراثية في عقبه .

**طبيعة العهد الجديد :**

دام الحكم المصري في بلاد الشام زهاء عشر سنوات ، وقد جرت فيها أثناء ذلك أحداث ذات أهمية اجتماعية غير قليلة بالنسبة لأهل الشام وبالنسبة لبعض البلاد المجاورة أيضاً .

كان ابراهيم باشا طيلة مدة حكمه يحاول التحبّب الى الناس ويتظاهر أمامهم بمظهر المنقذ المحرر الذي يريد أن يقيم حكماً وطنياً ذا شعار عربي ، فهو قد أطلق على جيشه اسم « الجيش العربي » ولقب نفسه « سر عسكر الجيش العربي » ، وكان يوقع رسائله وأوامره بهذا اللقب[1] . وحين كان يتحدث الى الناس كان يعتبر نفسه عربياً ويود أن يعتبره الناس كذلك ، وصرّح ذات مرة قائلاً : « لقد جئت الى مصر صبياً فلوّنت مصر دمي وصيّرتني عربياً » ، وكان يعلن أهدافه في العمل على انهاض العرب ويبذل جهده في نشر تلك الاهداف بين أهل الشام ، وكثيراً ما كان في بياناته العسكرية يأتي بألفاظ تثير الحماسة وتذكّر الناس بعصور المجد والفخار في التاريخ العربي ، ويحاول أن يقنع السكان

(١) داود بركات ( المصدر السابق ) ص٩ ، ١٩ .

بأن فجر عهد جديد قد أشرق عليهم[1] .

وكان عند دخوله الى دمشق قد اختار عشرين من أعيانها للمشاركة في حكم الولاية ، وأصدر بلاغاً قدّمه بهذه العبارة : « يجب على الراعي أن يعنى بأمر رعيته ... » ، ثم أرسل المنادين في الطرقات ينادون أن العدل سيشمل الناس جميعاً لا فرق بين دين ودين . وكتب أحد الاجانب الذين شهدوا الحالة يومذاك يقول : ان الجنود كانوا يدفعون للأهالي ثمن ما يأخذونه منهم وهذا أمر قلما وجده الناس في جيش أوربي ويندر أن يوجد في جيش اسلامي . ولم يغفل ابراهيم باشا عن الضرب على ايدي الذين كانوا يتحكمون في الناس سابقاً ويغتصبون أموالهم . وعندما قدم اليه سكان الناصرة عريضة يشكون فيها من قسوة حاكمهم أمر الحاكم بأن يقدم حسابه فلما ثبت أنه ابتزّ منهم ستة آلاف قرش فوق ما يجب عليهم أداؤه أصدر عليه فوراً حكما بالسجن مع الاشغال الشاقة اثنى عشر شهراً[2] .

ويحكي أن رجلاً جبلياً اعترض طريق ابراهيم باشا وأخذ يشكو لـــه ظلامته ، فلما ضاق صدر الباشا قال له : « يا عزيزي لقد طالعت اليـــوم مائتي عريضة وأود أن أرتاح قليلاً فثق بأن عريضتك ستكون موضـــع عنايتي »[3] .

الواقع أن أهل الشام استقبلوا العهد الجديد في بدايته بالفرح واعلان الغبطة ، وكانوا يقابلون ابراهيم باشا اينما ذهب بالحفاوة وهتافات الترحيب، ولكننا يجب أن لا ننسى أن هذه حالة موقتة لا يمكن أن تدوم طويلا . ان الفرحة التي يقابل الناس بها عهداً جديداً لابد أن يعقبها رد فعل مضاد لها على وجه من الوجوه .

---

(١) جورج انطونيوس ( يقظة العرب ) ترجمة ناصرالدين الأسـد ... ان عباس ـ بيروت ١٩٦٢ ـ ص٩١ .

(٢) بيير كربتيس ( المصدر السابق ) ص١٦٤ ، ٢٠٧ .

(٣) داود بركات ( المصدر السابق ) ص١٤٤ ـ ١٤٥ .

من طبيعة الناس بوجه عام أنهم اذ يفرحون بعهد جديد يتخيلون أنه سيعالج جميع مشاكلهم التي كانوا يتذمرون منها في العهد السابق ، ويشبع كل حاجاتهم ، ولكنهم سرعان ما يشعرون بخيبة الأمل ، فليس في وسع أي نظام بشري مهما كان عظيماً أن يلبي رغبات جميع الناس ، وان هو استجاب لرغبة البعض منهم أدى ذلك الى حرمان آخرين وقد قيل قديماً : « رضا الناس غاية لا تنال » .

لم يمض على الحكم المصري سوى مدة قصيرة حتى بدأت بوادر النقمة والتذمر بالظهور بين الناس ، وحين انسحب ابراهيم باشا من بلاد الشام في عام ١٨٤٠م كان معظم الناس فيها يلعنونه ويعلنون فرحهم بذهابه . ان العوامل التي ساعدت على ظهور تلك النقمة كثيرة ، نذكر فيما يلي أهمها :

**أولاً :** ان أشد ما يكرهه الناس من الحكومة عموماً هو الضريبة ، وعندما يفرح الناس بالعهد الجديد يحسبون أن الضرائب ستزول عنهم أو تخف على الاقل . ومن الجدير بالذكر أن حصيلة الضرائب أثناء الحكم المصري في الشام ارتفعت الى نحو ثلاثة أضعاف ما كانت عليه في العهد السابق[1] . يقول مخائيل مشاقة وهو من الشاميين الذين تعاونوا مع الحكم المصري : ان زيادة الضرائب كانت ثمناً للعدالة والحرية والمدنية التي أدخلها الحكم المصري الى البلاد وهو ثمن زهيد غير أن الناس أبوا أن يدفعوه ، وفضلوا العودة الى عهد الذل والهمجية على بذل دريهمات في سبيل استقلالهم والتخلص من مضطهديهم[2] .

**ثانياً :** فرض ابراهيم باشا التجنيد الاجباري على أهل الشام على

(1) Philip Hitti ( Lebanon In History ) London 1957 — P. 423.

(٢) مخائيل مشاقة ( مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان ) القاهرة ١٩٠٨م — ص١١٢ .

نحو ما فعل أبوه في مصر ، وكان يظن أن الشاميين سيخضعون له كما خضع المصريون من قبل[١] ولكنه أخطأ الظن لما بين الشعبين من اختلاف اجتماعي كبير . ومما زاد في الأمر سوءاً أن ابراهيم باشا قرر نزع السـلاح من السكان تمهيداً لفرض التعبئة العسكرية العامة فلم يطق الناس صبراً عـلى ذلك لأنهم في مجتمع يرى الوسيلة الأولى لحماية الفرد وأمنه هي بندقيته[٢] . ويحدثنا السائح البريطاني وليم تومسون الذي كان في بيروت عند فرض التجنيد عـلى السكان فقال : انهم أخذوا يلتجئون الى القناصـل الأوربية والأجانب طلباً للحماية ، ومنهم من فر الى الكهوف ، ورمى عدة رجـال بأنفسهم الى البحر قرب صخرة « الروشة » ثم صاروا يتسلقون الصخرة بينما كان الجنود المصريون يطاردونهم[٣] .

**ثالثا :** من طبيعة كل عهد جديد أن يظهر له خصوم ـ منذ يومـه الأول ـ وهم اولئك الذين كانوا في العهد السابق من أولى الجاه والنفوذ أو كانت لهم مصالح قائمة فيه ، فهم لابد أن يتألموا ويتذمروا عند قيام العهد الجديد ، وقد يتخذون أية وسيلة تقع في أيديهم من أجل تشويه سمعته والنكاية به . يقول المؤرخ الشامي محمد كرد علي في وصـف الادارة المصرية بدمشق : « وقد رأى الدماشقة ادارتها أحسن من الادارة التـي عهدوها من العثمانيين ، وكان من أول أعمال المصـريين ترتيب المجالس الملكية ، واقامة مجلس الشورى ، وترتيب المالية ووضـع نظام للجباية ، ومعاملة الرعايا بالمساواة والعدل ، ومع هذا استثقل أرباب النفوذ والمشايخ ظل هذه الدولة وودوا رجوع العثمانيين ليعيشوا معهم كالحلمة الطفيليـة تمتص دماء الضعفاء وتفتك بالآمنين الأبرياء ... »[٤] .

---

(١) داود بركات ( المصدر السابق ) ص٢٢٨ .

(٢) جورج انطونيوس ( المصدر السابق ) ص٩٢ .

(3) Philip Hitti ( op. cit. ) P. 424.

(٤) محمد كرد علي ( المصدر السابق ) ص٤٠ ــ ٤١ .

**رابعة :** ان الفتاوي الشرعية التي أصدرها علماء اسطنبول في تكفير محمد علي كان لها شيء من التأثير على الناس ، وقد أضيف اليها ما أفتى به مفتي عينتاب اذ حكم على محمد علي بانه رافضي زنديق[1] ، وربما كان سبب هذه التهمة الأخيرة هو أن محمد علي كان يميل الى الطريقة البكتاشية . وعلى أي حال فقد أخذ دعاة الدولة العثمانية وأعوانها يندسون بين الناس فينشرون تلك الفتاوى بينهم حيث يلصقون تهمة « الكفر » و « الزندقة » بالحكم المصري . ومما ساعد على رواج هذه التهمة أن ابراهيم باشا اتبع سياسة المساواة بين المسلمين والمسيحيين على نحو ما سنذكره بعد قليل ، فعد الناس ذلك دليلاً على كفره .

**خامسا :** كانت بريطانيا لا تقل عن الدولة العثمانية عداءاً لمحمد علي ومحاربة للحكم المصري في الشام ، وكان اللورد بالمرستون وزير الخارجية البريطانية يبغض محمد علي من صميم قلبه اذ يعتبره الخطر الذي يهدد طريق الهند[2] ، وقد كتب عنه في ٢١ أذار ١٨٣٣م رسالة قال فيها : « ان هدف محمد علي الحقيقي هو اقامة مملكة عربية تضم جميع البلاد التي يتحدث أهلها باللغة العربية . وقد يكون هذا الأمر في ذاته لا ضرر منه ، ولكنه يرمي الى تقطيع أوصال تركية وهو ما لا نرضى عنه أبداً . وفضلاً عن ذلك فان أي ملك عربي ، مهما تبلغ قوته ، لن يكون أقدر من تركية على المحافظة على ما تحتله من طريق الهند »[3] . والواقع أن بريطانيا أرسلت عملاءها الى بلاد الشام للعمل على تقويض الحكم المصري فيها ، وكان أهمهم في ذلك رجل يدعى ريشارد وود وهو قد أُرسل من السفارة البريطانية في اسطنبول الى بيروت في عام ١٨٣٥م لكي يفسد ما بين الدروز

---

(١) بيير كربيتس ( المصدر السابق ) ص١٥٨ ، ٢٤٤ .

(٢) المصدر السابق — ص٢٢٥ .

(٣) جورج انطونيوس ( المصدر السابق ) ص٩٣ .

والمصريين[1] .

**الليدي ستانهوب :**

لعل من المناسب هنا أن نذكر شيئاً عن أمرأة بريطانية كان لها دور لا يستهان به في اثارة الشاميين على الحكم المصري هي الليدي هسترستانهوب. وسيرة هذه المرأة لا تخلو من طرافة وشذوذ ، فهي من ذوات الحسب والنسب اذ كان خالها وليم بت السياسي البريطاني المعروف ، وجدها اللورد چاثام ، ولكنها سئمت الحياة في بريطانيا بعد موت خالها في عام ١٨١٠م ، وقيل انها أصيبت بخيبة في الحب ، فآثرت السفر الى الشرق الأوسط . وجاء بصحبتها شاب غني كان عاشقاً لها اسمه مشيل بروس ، فوصلت الى اسطنبول ثم انتقلت منها الى القاهرة واستقبلها محمد علي في ديوانه ، ومن ثم ذهبت الى بلاد الشام فزارت تدمر واستقبلها الاعراب هناك كأنها ملكة ، وكانت هي تسرف في العطاء وفي احاطة نفسها بمظاهر الأبهة والبذخ ، كأنها تريد أن تعيد الى الاذهان اسم زنوبيا ملكة تدمر[2] .

وفي عام ١٨١٣م — بعد أن تركها عاشقها بروس وعاد الى بريطانيا — استقرت في لبنان حيث شيّدت لنفسها قصراً يشبه القلعة فوق تل صغير على بعد ثمانية أميال من صيدا ، واتخذت زي النساء المحلي فلبست عمامة ومداساً برأس منعكف، وصارت تدخن النارجيلة وتحمل السوط والخنجر، وشرعت تدرس اللغة العربية وأولعت بعلم النجوم وعلم الكيمياء القديم ، وأحاطت نفسها بحرس من الألبانيين وحاشية من الزنوج وفرضت عليهم أن يسلكوا معها حسب قواعد التشريفات الملكية .

الواقع أنها استطاعت أن تكون ذات نفوذ وسلطة كبيرة جداً بين سكان

---

(1) Sarah Searight ( The British In The Middle East ) London 1969 — P. 92.

(2) Ibid, P. 156—7.

المناطق المجاورة ، ولا سيما الدروز منهم ، فكانوا يحترمونها ويطيعون أمرها الى درجة تبعث على الدهشة • وعندما فتح ابراهيم باشا بلاد الشام أدرك مالها من نفوذ وطلب منها أن تقف على الحياد ولكن الحيـــاد لم يكن من شيمتها فصارت من أشد الناس طعناً في الحكم المصري[١] • ولا ندرى هل كان ذلك بايعاز من الحكومة البريطانية أم بدافع ذاتي منبعث من شخصيتها ذات الأطوار الغريبة •

كان لستانهوب جواسيس يعملون في المدن الشامية الكبيرة ، وكانت مراسلاتها ومؤامراتها مع الشيوخ والباشوات متصلة ، وكان لها يد في اثارة الدروز على الحكم المصري[٢] ، ولم يسترح منها ابراهيم باشا الا بعد أن ماتت في عـام ١٨٣٩م ، فدفنت في مكانها ، وكان عمرها لا يتجاوز الثالثة والستين ، وقيل انها كانت عند موتها وحيدة مفلسة[٣] •

**المشكلة الطائفية :**

كانت المشكلة الطائفية من أهم المشاكل التي واجهها الحكم المصري في بلاد الشام • ولكي نفهم طبيعة هذه المشكلة يجدر بنا دراسة الوضع الذي كان سائداً في تلك البلاد قبل مجيء الحكم المصري •

الواقع أن الوضع الطائفي كان في العهد العثماني قد اتخذ طابعـــاً معيناً يستمد جذوره من الفقه الاسلامي الذي يعتبر المسلم أرفع درجة من الذمي • يقول ساطع الحصري : ان الحكومة العثمانية كانت تعامل رعاياها المسلمين معاملة خاصة تختلف عن معاملة غير المسلمين ، فهي كانت تعتبرهم كأنهم أهل الدولة وتعتبر غيرهم كأنهم غرباء عنها[٤] •

---

(١) بيير كربتيس ( المصدر السابق ) ص٢١٨ •

(2) Philip Hitti ( op. cit. ) P. 424.

(3) Sarah Searight ( op. cit. ) P. 158.

(٤) ساطع الحصري ( محاضرات في نشوء الفكرة القومية ) بيروت ١٩٥٦ ــ ص١٧٧ ــ ١٧٨ •

ولم يكن هذا التمييز الديني مقتصراً على المعاملات الرسمية فقط ، بل كان يشمل كذلك معاملات الناس بعضهم لبعض . يحدثنا مخائيل مشاقة حديثاً طويلاً عما كان يجرى في بلاد الشام من اضطهاد للمسيحين نقتطف منه ما يلي :

« كان المسيحي عرضة للاهانة والذل أينما مرّ وحل ، وكان المسلم يسيء معاملته لدرجة مفرطة حتى ألف الذل كما ألف مُذّله اذلاله . فكان النصراني حيثما مر وتوجه يُنعت بالكافر ويُشتم صليبه ويحتقر وتقلب عمامته ويصفع ويرفس الى غير ذلك من الاهانة . وكان اذا مر في حي المسلمين لحقه صبيان الأزقة قائلين له ( نصراني كلب عواني .. رقّوله بالصرامي . قالت أمه فينه ضربة تقلع عينه ) . وكان المسلم اذا مر بمسيحي يقول له : اشمل ، يريد بذلك أن يسير عن يساره فيفعل صاغراً ... وكان كثيراً ما يسخره أصحاب الدكاكين لقضاء حوائجهم ، أو يستعملون اهانته لاذهاب مللهم وتفريج كربهم فيناديه بعضهم تعال يا معلم فيذهب اليه ويصفعه ويكلفه أن يذهب بحاجته أو يلبسه حذاءه أو يشتغل عنه شغلاً ما ، واذا كان مازحاً يهمس في اذنه شتماً أو اهانة ، أو يأخذ عمته ويصفعه على أم رأسه ويرمى العمة الى جاره وهذا الى الذي يليه وهلم جرا ... وكان قانون الحكومة اذ ذاك يُكره المسيحي أن يحمل على كتفه كيساً يسمونه كيس الحاجة وليس له أن يخرج من بيته بدونه والمقصود من هذا الكيس أن يضع به من الأغراض وحوايج المسلمين ما يسخره هؤلاء بحمله من بقول وخضار وغيرها ... »[1] .

ان هذا وصف قد لا يخلو من مبالغة وتزويق ، فقائله مسيحي وهو لابد أن ينظر الى الأمور من زاويته الخاصة ، ولكننا مع ذلك نشعر بأن في قوله شيئاً من الحقيقة قليلاً أو كثيراً ، فنحن نعرف طبيعة البشر حين يسيطر

---

(١) مخائيل مشاقة ( المصدر السابق ) ص٢٦ ـ ٢٧ .

عليهم الجهل والتعصب ، وكثيراً كون الانسان ذئباً لأخيه الانسان كما لا يخفى !

وعلى أي حال فان ابراهيم باشا عندما تم لـه فتح بلاد الشام اتخذ سياسة المساواة بين المسلمين وغيرهم كما أشرنا اليه من قبل ، فأجاز لهم ما كان ممنوعاً عليهم كلبس العمامة البيضاء والحذاء الأحمر أو ركـوب الخيل ، وأعلن للناس أن اليهود والنصارى ليسوا أحط مقاماً من المسلمين حتى ينزل أحدهم عن دابته اذا قابل في الطريق أي شخص مسلم[١] ، ثم عيّن الكثير من المسيحيين في المناصب المهمة ، وصار المسيحيون في دمشـق يُخرجون مواكبهم الدينية من غير أن يعترضهم أحد ، وحين ارتد ثلاثة من المسلمين واعتنقوا المذهب الماروني غض ابراهيم باشا نظره عنهم ولم يفعل بهم شيئاً[٢] •

وسمح ابراهيم باشا للارساليات التبشيرية بتأسيس مراكز ثابتة لهم في بلاد الشام وأعطاها حرية كاملـة للعمل ، فادى ذلك الى قيام أشـهر مؤسستين ثقافيتين أجنبيتين في لبنان هما الارسالية الامريكية والارسـالية اليسوعية[٣] اللتان لا تزالان قائمتين •

ان سياسة المساواة هذه التي سار عليها ابراهيم باشا جعلت المسيحيين يرضون عنه والمسلمين يغضبون ، ولكن المسيحيين لم يستمروا على رضائهم عنه مدة طويلة ، فان عوامل النقمة التي أسلفنا ذكرها سرعان ما أخذت تؤثر فيهم أيضاً ، وانتهى الأمر به أخيراً الى أنه عند انسحابه من البلاد كان مغضوباً عليه من اكثر السكان لا فرق في ذلك بين المسلمين منهم والمسيحيين •

**تتابع الثورات :**

أولى الثورات التي قامت في وجه الحكم المصري ظهرت في فلسطين في

---

(١) داود بركات ( المصدر السابق ) ص١٤١ •
(2) Philip Hitti ( op. cit. ) P. 423.
(٣) أنيس صائغ ( لبنان الطائفي ) بيروت ١٩٥٥ ــ ص١٠٠ •

عام ١٨٣٣م ، وكان أشد المحرضين عليها هم آل أبي غوش في القدس ويافا اذ كانوا من الناقمين على ابراهيم باشا المتذمرين من حكمه •

كانت أسرة أبي غوش في العهد السابق تفرض الأتاوة على أديرة الرهبان وعلى حجاج المسلمين وكل من يمر بمنطقتها من أصحاب المواشي ، وقد منعها ابراهيم باشا من ذلك وسجن كبيرها ، فنقمت الأسرة عليه من جراء ذلك ، كما نقمت عليه قبيلة عنزة لما كان بينها وبين أسرة أبي غوش من مصاهرة(١) •

وانضمت الى هذه الاسرة في النقمة على ابراهيم باشا أسر أخرى كأسرة طوقان وأسرة الجزار في نابلس ، فقد كان رجال تلك الأسر هم الحكام في العهد السابق فأسقطهم ابراهيم باشا وأحل محلهم أسرة آل عبدالهادي (٢) • وفي ذات يوم من عام ١٨٣٣م صعد شاب الى مأذنة الجامع الكبير في نابلس وأخذ يصيح بأعلى صوته قائلاً : « لقد درست معالم الاسلام ومُحي من الوجود ، ألا يجرى في عروقنا الدم التركي ، ليقم كل رجل يحب النبي الى سلاحه فيتقلده ، وليذهب لقتال هذا الرجل الذي لا ايمان له ، هذا الجاور ـ أي الكافر ـ ابراهيم باشا ، هذا السكير الذي يدمن شرب الخمر والنبيذ ، والذي يأكل لحم الخنزير وكل ما يخرجه البحر من أقذار كما يفعل المسيحيون ، والذي يسكن الأديرة مع القسس ، ويصلي معهم ولا يذهب الى المساجد قط »(٣) • وكان هذا النداء ايذانا ببدء الثورة في فلسطين ، وكانت ثورة عارمة خسر فيها ابراهيم باشا ـ على ما قيل ـ أربعة آلاف جندي(٤) ، ولابد أن تكون خسائر الثوار أكثر •

ولم يكد ابراهيم باشا ينتهي من هذه الثورة حتى نشبت في الشمال

---

(١) داود بركات ( المصدر السابق ) ص١٢٥ ، ١٥٠ •
(٢) المصدر السابق ـ ص١٢٥ •
(٣) بيير كربيتس ( المصدر السابق ) ص٢٢٠ •
(٤) داود بركات ( المصدر السابق ) ص١٥٣ •

ثورة أخرى قام بها النصيرية حيث كمنوا للواء من الجيش المصري فهزموه وفتكوا بنصف رجاله ، ثم هاجموا بلدة اللاذقية فنهبوا أملاك الحكومة والمسيحيين ، ولم تخمد هـذه الثورة الا بعد معارك طاحنة أحترق فيها الكثير من القرى(١) .

وفي عام ١٨٣٦م قام الدروز بثورة شعواء أوسع نطاقاً مما سبق وأوخم عاقبة ، وكان سببها المباشر هو أن شريف باشا والي دمشق أرسل الى شيخ مشايخ الدروز يحيى حمدان يستدعيه اليه ، ولما حضر الشيخ طلب منه الوالي مائة وسبعين شاباً للجندية ، فاعتذر الشيخ عن ذلك قائلاً بان شبان الدروز يدافعون عن بلادهم تجاه غزوات البدو ولا يمكن الاستغناء عنهم ، ويقال ان الشيخ أظهر حدة في كلامه مما جعل الوالي يغضب عليه فيمسكه من لحيته أو يصفعه على وجهه . فكظم الشيخ غيظه وتظاهر بالطاعة وخرج وهو يضمر الثورة .

وقد استمرت الثورة زهاء عشـرة أشهر كانت فيها خسائر الفريقين هائلة ، وقدّر القناصل خسارة ابراهيم باشا فيها بعشرة آلاف رجل ، وكان الدروز قد أبدوا من الشجاعة وحسن التدريب ما أعجب به كبار القواد(٢) .

**مقتل الراهب الكبوشي :**

في عام ١٨٣٨م حدثت حادثة غريبة في دمشق هزت الرأي العـام واتخذها الخصوم حجة يشنّعون بها على الحكم المصري ، وخلاصة الحادثة أن راهباً من الطائفة الكبوشية يدعى الأب توما كان قد ذهب الى حارة اليهود في الخامس من شباط بغية تلقيح أحدهم ضد الجدري غير أنه لم يرجع الى بيته ، فاتّهم اليهود بقتله وألقت الحكومة القبض على عدد منهم ووضعتهم تحت العذاب لكي يعترفوا على القاتل .

---

(١) المصدر السابق ــ ص١٢٧ ــ ١٢٨ .
(٢) المصدر السابق ــ ص١٢٩ ، ١٥١ ــ ١٥٣ .

يتهم اليهـود منذ زمن قديم بأن لديهم تقاليد دينيـة تدعوهم الى اصطياد شخص مسيحي بمناسبة عيد الفصح حيث يستنزفون دمه ليعجنوا به الفطير الذي يأكلونه في ذلك العيد ، وقد تنوقلت هذه التهمة عن اليهود طيلة القرون الوسـطى ، وشـاعت حولهم حكايات غريبة من قبيل خطف الأطفال أو الرهبان من أجل استنزاف دمائهم ، وكثيراً ما أدت تلك الاشاعات الى موجات من الاضطهاد تحل باليهود في البلاد الأوربية بين حين وآخر •

وقد جرى مثل هذا في دمشق على اثر اختفاء الراهب الكبوشي ، حيث هاج الناس وماجوا وسار جمهور منهم نحو سراي الحكومة يطلبون منهـا التحقيق عن الجناة والتشديد في عقابهم • واتخذت القضية طابعاً دولياً ، فقد اهتم بها القنصل الفرنسي باعتباره حامي النصارى في بلاد الشام ، كمـا اهتم بها القنصل النمساوي لأن أحد المتهمين كان من رعايا دولته •

جرى التحقيق الشديد مع المتهمين ، فمات اثنان منهم أثناء التحقيق ، واعترف أحدهم ويدعى الحاخام موسى أبو العافية بأنهم انما قتلوا الراهب من أجل استنزاف دمه ثم طرحوا جثته بعدئذ في أحد المجارى القريبة • وقد أعلن أبو العافية اسلامه ليقي نفسه من نقمة قومه عليه وصار اسـمه « محمد أفندي » • ثم عثر على الجثة بعدئذ فقام بالفحص عليها مخائيل مشاقة لانه كان يتعاطى مهنة التطبيب •

صدر الحكم أخيراً ، فنال عشرة من المتهمين عقوبة الاعدام ، وحصل على العفو أربعة منهم لأنهم أقروا بالحقيقة وكان أحدهم محمد أفندي أبو العافية[١] • ولكن حكم الاعدام لم ينفذ ، وأطلق سراح المحكوم عليهم بأمر من محمد علي باشا • وقيل ان أحد اليهود البريطانيين وصل الى دمشـق واشترى حرية المتهمين من الباشا بستين الف كيس[٢]

---

(١) أبو صادق ( التفليم المقدس ) بغداد ١٩٦٧ ـ ص٢٠ •

(٢) مخائيل مشاقة ( المصدر السابق ) ص١٢١ ـ ١٢٢ •

**موقعة نزيب :**

ان صلح كوتاهية الذي عقد في عام ١٨٣٣م بين محمد علي باشا والسلطان محمود كان بمثابة هدنة موقتة وما كان صلحاً حقيقياً ، فلم يكن من الهين على السلطان محمود أن يرى أحد رعاياه يهزم جيوشه ويذله ويرضخه لمشيئته ، ولهذا اشتد عزم السلطان محمود على أن يقوي جيشه لكي يجعله كفؤاً للجيش المصري وقادراً على غلبته ، فاستدعى من المانيا ضباطاً قديرين من أمثال فون ملباخ وفيشر وفون ونك والبارون فون مولتكه ليدربوا جيشه على أحدث الأساليب •

وفي عام ١٨٣٩م ظن السلطان أن جيشه قد أصبح قوياً بحيث يستطيع أن يقف تجاه الجيش المصري ويهزمه ، أضف الى ذلك أنه كان يتوقع من أهل الشام أنهم سيثورون على الجيش المصري أثناء نشوب المعركة وينقضون عليه من ورائه ، وبذا تحل به الهزيمة الكبرى •

وقعت المعركة الحاسمة بين الجيشين في موضع قريب من قرية « نزيب »[1] ، وهي قرية تقع الى الشمال من حلب على الحدود بين سوريا وتركيا • ومما يلفت النظر أن كلا من الجيشين كان فيه ضابط أوربي قدير يضع الخطط له ، فقد كان القائد الالماني فون مولتكه في قيادة الجيش العثماني بينما كان سليمان باشا الفرنساوي في قيادة الجيش المصري •

كان الجيش العثماني قد اتخذ له موقعاً حصيناً وفق خطة متقنة وضعها فون مولتكه ، ولم يكن في مقدور الجيش المصري أن يقتحم ذلك الموقع ما لم يعتمد على خطة تحتوى على مجازفة كبيرة • ويقال ان الخطة التي وضعها سليمان باشا لهذا الغرض كانت عبارة عن مزيج من العبقرية والجنون • فهي خطة يمكن أن توصف بأنها « وميض من العبقرية » في

---

(١) اخطأ بعض المؤرخين العرب حيث أطلقوا على المعركة اسم « نصيبين » بدلاً من « نزيب » مع العلم أن بلدة نصيبين تقع قرب الموصل وهي بعيدة جداً عن موقع المعركة •

حالة نجاحها ، وبأنها « أوهام من عقل مخبول » في حالة اخفاقها[١] .

يبدو أن الخطة كانت تعتمد على الجانب النفسي من الطبيعة البشرية بدلاً من الاعتماد على القواعد العسكرية المعروفة ، فهي تقوم على أساس انتقال الجيش المصري من مواقعه وتعريض جناحه للخطر بخلاف ما تقتضيه قواعد الحرب ، وهذا لابد أن يحدث ذهولاً في القيادة العثمانية فلا تستطيع أن تتبيّن كنه الخطة الا بعد مرور فترة من الزمن وهي فترة كافية لكي يقوم الجيش المصري بالمناورة المناسبة له .

كان ابراهيم باشا واثقاً من سلامة تقدير صاحبه سليمان باشا ، فأسرع الى الموافقة على خطته وسار عليها بحذافيرها من غير تردد . والغريب ان فون مولتكه في الجانب الآخر عندما أدرك حقيقة الموقف وأراد تغيير خطته لكي يواجه بها مناورة الجيش المصري وقف القائد العثماني حافظ باشا في وجهه ومنعه من ذلك . وقد احتدم الجدال بين الرجلين من جراء ذلك ، إذ كان حافظ باشا يريد ادارة المعركة حسب أسلوبه القديم بينما كان مولتكه يريد أن يديرها حسب أحدث الأساليب . واشتد الغضب بالقائد الالماني اثناء الجدال بحيث هدّد بتقديم استقالته ، غير أن حافظ باشا قال له يلومه : « ان الجندي لا يستقيل قبيل المعركة » مما جعله يسحب استقالته[٢] .

كانت المعركة قد بدأت في صباح ٢٤ حزيران ١٨٣٩م ، ولم تمض عليها سوى ساعات ثلاث حتى كان الجيش العثماني قد انهار تماماً وشاعت فيه الفوضى . يقول المؤرخ بروكلمان : ان تلك المعركة شهدت أموراً لم تشهدها أية معركة أخرى في التاريخ اذ اختلط فيها الغالب والمغلوب وصاروا يركضون جميعاً في اتجاه واحد[٣] .

---

(١) بيير كربتيس ( المصدر السابق ) ص٢٣٨ .

(٢) المصدر السابق ـ ص٢٣٩ .

(3) Carl Brochelmann ( op. cit. ) P. 359.

**الانحدار بعد القمة :**

مات السلطان محمود قبيل سماعه بنبأ هزيمة « نزيب » ، ثم جاءت بعد ذلك ثالثة الاثافي وهي خيانة أمير البحر التركي أحمد باشا فقد خرج هذا بسفنه حالما سمع بخبر الهزيمة وتوجه بها الى الاسكندرية حيث سلمها الى الحكومة المصرية ، وكان ذلك قمة الانتصار لمحمد علي باشا وأخطر ساعة في تاريخ الدولة العثمانية .

لم يهنأ محمد علي باشا بهذا النصر طويلاً ، فقد أخذت القوى المعادية تسعى في ثلمه والانتقاص منه . ففي ٨ حزيران من عام ١٨٤٠م – أي بعد مرور سنة واحدة على معركة « نزيب » – اجتمع عدد كبير من مشايخ الدروز والمسيحيين والسنيين والشيعة في قرية انطلياس التي تقع على البحر الى الشمال من بيروت ، فعقدوا مؤتمراً في ضريح القديس الياس ، وهو ضريح تقدسه معظم الطوائف في لبنان ولا يقسمون به كذبا ، وتحالف الجميع هنالك على التعاون والتضامن في سبيل القيام بثورة عامة ضد الحكم المصري ، وتعهدوا على « أن يقاتلوا من أجل الاستقلال أو يموتوا دونه » ، واختاروا فرنسيس الخازن رئيساً لهم(١) .

ونشبت الثورة فعلاً ، فكانت ثورة واسعة النطاق اشترك فيها المسيحيون مع الدروز ، والشيعة مع السنيين ، وكانت تلك أول مرة يشترك فيها هؤلاء جميعاً في حركة موحدة ، وحاول ابراهيم باشا التفريق بينهم دون جدوى(٢) .

وانتهزت بريطانيا الفرصة فأرسلت بعض سفنها الحربية الى بيروت تصحبها سفن نمساوية وعثمانية ، وأخذت السفن تقصف بيروت وأنزلت الجنود في جونيه القريبة منها . ونالت عكا أثناء ذلك كارثة جديدة لا تقل

---

(1) Philip Hitti ( op. cit. ) P. 424—425.

(٢) انيس صايغ ( المصدر السابق ) ص١٠٢ – ١٠٣ .

فظاعة عن كوارثها السابقة ، فقد أخذت السفن البريطانية تقصفها بالقنابل ، وأصابت احدى القنابل مخازن الذخيرة فيها فانفجرت تلك المخازن انفجاراً رهيباً ارتجت له الأرض وسمع دويه في أقصى البلاد وهلك به ألف وخمسمائة جندي • وكانت تلك ثالثة كارثة حلت بعكا منذ بداية القرن : أولاها كانت بحصار نابليون ، والثانية بحصار ابراهيم باشا ، وها هي الآن تحل بها الثالثة • وقال أحد الشعراء يصف حالة عكا ويذمها :

قالوا بأن جهنماً تحت الثرى      مالي أراها فوق عكة تضرم

لو لم تكن دار الشقاوة عكة      ما أمطرتها بالشرار جهنم[١]

اضطر محمد علي تحت ضغط الدول الأوربية أن يأمر ابنه ابراهيم بالانسحاب من بلاد الشام • وفي منتصف كانون الأول من عام ١٨٤٠م بدأت القوات المصرية بالانسحاب ، وقد لقيت تلك القوات الأهوال أثناء انسحابها ، ولم يصل ابراهيم باشا بما بقي منها الى مصر الا بشق الأنفس[٢] •

ونستطيع أن نقول أن زوال الحكم المصري من بلاد الشام كان ايذانا بعودة الفوضى اليها • كتب القنصل البريطاني بدمشق في تقرير له يقول : « لم يكد المصريون يُطردون ويتقلص ظل سطوتهم ـ وقد كانوا أخضعوا الجميع لحكمهم الشديد ـ حتى عاد القوم الى نبذ الطاعة ، وخلفت الرشوة والتبذير في ادارة المالية النزاهة والاقتصاد ، ومُنيت المداخيل بالنقص ، واستأنف عرب البادية غاراتهم على السكان ، فخلت القرى والمزارع المأهولة بالتدريج ، حتى أمكن القول أنه لا يوجد ثم ظل للأمن على الحياة والأملاك، وكل شيء يدعو الى عودة الفوضى الى هذه الديار »[٣] •

وأخذ التوتر الطائفي تظهر معالمه هنا وهناك، وعاد بعض عوام المسلمين

---

(١) داود بركات ( المصدر السابق ) ص١٩٩ •

(٢) محمد فريد بك ( المصدر السابق ) ص٢٤٦ •

(٣) محمد كرد علي ( المصدر السابق ) ص٤١ ـ ٤٢ •

الى عادتهم القديمة في اضطهاد المسيحيين وصاروا ينتقمون منهم[1] .
ولوحظ أن المسيحيين في دمشق صاروا يتركون العمائم البيضاء خوفاً من تحرش المسلمين بهم ورجعوا الى عمائمهم السوداء[2] .

وأصبحت كل طائفة من الطوائف الشامية تستظل بحماية احدى الدول الكبرى وتوثق ارتباطها بها ، فكان السنيون يستظلون بحماية الدولة العثمانية بطبيعة الحال ولا يريدون غيرها ، كما كان الدروز يستظلون بحماية بريطانيا ، والارثدوكس يستظلون بحماية روسيا . أما المارونيون فكانت علاقتهم قد توطدت بفرنسا منذ القرن الثالث عشر الميلادي ثم ازدادت توطداً بمرور الزمن حتى صاروا أخيراً يعتبرون فرنسا حليفتهم الطبيعية ويطلقون عليها لقب « الأم الحنون » .

## مذابح الستين :

يمكن القول على أي حال ان أبشع فترة في تاريخ بلاد الشام هي تلك التي أعقبت الحكم المصري وامتدت زهاء عشرين عاماً ، وهي التي سميت بـ « عهد الفتن » إذ حدثت فيها ثلاث مذابح طائفية فظيعة : كانت الأولى في عام ١٨٤١م ، والثانية في عام ١٨٤٥م ، والثالثة في عام ١٨٦٠م .

تعد مذابح الستين ، وهي التي وقعت في عام ١٨٦٠م ، من أفظع المذابح الطائفية في تاريخ الدولة العثمانية ، ولا يزال الكثيرون من أهل الشام يذكرونها بألم ممض ، وكانت السبب الاول فيهجرة الشاميين الى الامريكتين وأفريقيا وغيرها من أنحاء العالم .

بدأت مذابح الستين في لبنان في شهر نيسان ، وفي خلال أسابيع قليلة كان أكثر من ستين قرية مسيحية في منطقتي الشوف والمتن قد تحولت الى رماد ، وفي حاصبيا كانت التعليمات تقضي بأن لا يبقى أي ذكر مسيحي بين

---

(١) انيس صايغ ( المصدر السابق ) ص١١١ ــ ١١٢ .
(٢) مخائيل مشاقة ( المصدر السابق ) ص١٣٧ ــ ١٣٨ .

السابعة والسبعين حياً ، واتسع نطاق الكارثة حتى وصل الى زحلة فلم يسلم فيها بيت من الحريق الا نادرا ، واستمرت الكارثة ثلاثة أشهر سقط فيها من القتلى اثنا عشر الفاً وقدرت الخسائر في الممتلكات بأربعة ملايين باون(١) •

وفي تموز انتقلت الشرارة الى دمشق ، وهناك اتخذت الكارثة وجهاً آخر ، حيث سيطر الغوغاء على المدينة وصاروا يقتلون ويدمرون بلذة عارمة لا تقف عند حد كما هو شأن الغوغاء في كل زمان ومكان • يقول المؤرخ الشامي محمد كرد علي في وصف المذبحة ما نصه : « وأهم ما وقع في هذا القرن حادثة النصارى المعروفة بحادثة الستين سنة ١٨٦٠م وخلاصتها قيام رعاع المسلمين والدروز على نصارى دمشق وقتلهم ونهبهم والقاء النار خمسة أيام في حيهم حتى خرب كله ••• جرى هذا كله في مدينة التسامح واللطف ، فسوّد الأشقياء سمعة دمشق بعد أن عاش المواطنون قرونا في صفاء وولاء • وكانت لبعض الدول الغربية يد في اثارة النصارى من جهة واثارة الدروز من أخرى • ويكاد المؤرخون يجمعون على أن الدولة ـ يقصد الدولة العثمانية ـ هي التي دفعت الرعاع أو غضت النظر عنهم فارتكبوا ما ارتكبوا ••• »(٢) •

والجدير بالذكر أن الأمير عبدالقادر الجزائري أبدى أثناء المذبحة من المروءة والشهامة أمراً عظيماً ، فقد استطاع هو ورجاله أن ينقذ ما يزيد على ألف شخص من النصارى(٣) ، وظل طيلة ثمانية أيام بلياليها متقلداً بندقيته لا يذوق النوم الا لماماً حذراً من هجوم الغوغاء على النصارى الذين كان يحميهم في داره والدور المجاورة لها • وقد جاء اليه الغوغاء ذات مرة يهددونه ويطلبون منه تسليم من عنده من النصارى كأنهم متعطشون

---

(1) Philip Hitti ( op. cit. ) P. 437—438.

(٢) محمد كرد علي ( المصدر السابق ) ص٤٢ ــ ٤٣ •

(3) Philip Hitti ( op. cit. ) P. 439.

للدماء ، فلم يضعف تجاه الغوغاء وأبدى استعداده لقتالهم فانصرفوا عنه[1] .

وحاول كثير من وجهاء دمشق أن يحذوا حذو الأمير الجزائري كأسعد أفندي حمزة ،والشيخ سليم العطار ، وصالح أغا الشوربجي ، وسعيد أغا النوري ، وعمر أغا العابد . ولكن البعض منهم خارت قواه تجاه بطش الغوغاء فسلّم من في حوزته من النصارى اليهم ، فذبحهم الغوغاء ذبح النعاج .

عزمت الدول الاوربية على التدخل ، وأرسلت فرنسا قوة عسكرية قوامها سبعة آلاف جندي الى بيروت . وعند هذا أدركت الدولة العثمانية خطورة الموقف فأسرعت بأرسال وزير الخارجية فؤاد باشا ، وكان من دهاة الرجال ، فوصل الى بيروت قبل وصول القوة الفرنسية اليها .

وحين وصل فؤاد باشا الى دمشق أمر بالقاء القبض على من اتهموا في التحريض على المذبحة أو المشاركة فيها ، وأمر كذلك بتفتيش البيوت بحثاً عن الأموال المنهوبة ، فاستولى الرعب على الناس وصاروا يطرحون ما عندهم في الطرقات والشوارع حتى امتلأت بها . واستفاد اليهود من تلك الفرصة حيث صاروا يشترون الأشياء الثمينة بأسعار تافهة لأنهم لم يكونوا من المشتبه بهم .

وبعد التحقيق صدر الأمر باعدام مائة وأحد عشر جندياً رمياً بالرصاص ، وبشنق ست وخمسين رجلاً من الأهالي وكان بعضهم من الأسر الكبيرة ، وحكم على آخرين بالنفي والاشغال الشاقة ، وكان من بين المنفيين طاهر أفندي مفتي الحنفية وعمر أفندي مفتي الشافعية وأحمد عجلاني نقيب الاشراف والشيخ عبدالله الحلبي رئيس العلماء[2] . وانتهت الملحمة باعدام أحمد باشا الذي كان والياً في دمشق أثناء المذبحة ويقال انه كان منفذاً للاوامر التي وردت اليه من اسطنبول فخافت الدولة من شيوع

---

(١) مخائيل مشاقة ( المصدر السابق ) ص١٧٧ ، ١٨٤ .
(٢) المصدر السابق ـ ص١٨٩ .

الخبر فقتلته[١] .

**مصر بعد محمد علي :**

في عام ١٨٤٤م بلغ محمد علي باشا الرابعة والسبعين من عمره ، وقد بدأت بوادر الخرف أو الاختلال العقلي تظهر عليه . وفي منتصف ١٨٤٨م اشتد المرض عليه فتولى ابنه ابراهيم باشا الحكم مكانه . غير أن ابراهيم باشا لم يستقر في الحكم طويلا اذ كان مصاباً بمرض في بدنه وقد مات من جراء ذلك في ١٠ تشرين الثاني من العام نفسه ، فتولى الحكم مكانه ابن اخيه عباس باشا . وفي ٢ آب من العام التالي مات محمد علي باشا .

كان عباس باشا ، فيما يقول عنه بروكلمان ، ذا تعصب ديني شديد ويمقت الثقافة الأوربية مقتاً عميقاً وقد برهنت فترة حكمه القصيرة على أنه كان مستبداً غير كفوء[٢] . وكان أهم عمل قام به عباس باشا هو انشاء سكة الحديد بين الاسكندرية والقاهرة في عام ١٨٥٢م ، وكذلك مد خطوط التلغراف في مصر لتسهيل التجارة[٣] ، فكان ذلك بداية دخول المخترعات الحديثة في البلاد العثمانية .

مات عباس باشا في تموز من عام ١٨٥٤م ولم يكن قد تجاوز الأربعين من عمره الا قليلاً ، والمظنون أنه مات مسموماً ، فتولى الحكم مكانه عمه سعيد باشا وكان هذا على النقيض من سلفه يميل الى الثقافة الاوربية ويحب العلم الحديث ويتكلم اللغة الفرنسية جيداً .

كان لسعيد باشا صديق حميم من الفرنسيين هو فرديناند ديلسبس ، وقد استطاع هذا الصديق أن يحصل منه على امتياز لفتح قناة تربط بين البحر الابيض والبحر الأسود ، هي القناة التي عرفت فيما بعد باسم « قناة

---

(١) محمد كرد علي ( المصدر السابق ) ص٤٣ .

(2) Carl Brockelmann ( op. cit. ) P. 363 ‘ 369.

(٣) جرجي زيدان ( المصدر السابق ) ج١ ص٥٨ .

السويس » • والواقع أن حفر القناة لم يكن أمر سهلاً اذ كان يعتمد بالدرجة الأولى على الايدي العاملة ، ولم يكن للآلات نصيب كبير فيه كما هو الحال في ايامنا • واستغل دي‌لسبس صداقته مع سعيد باشا فلجأ الى « السخرة » من أجل الحصول على العمال ، فكان أبناء القرى يساقون الى العمل تحت ضرب القرباج أحيانا ، وقد يربطون بالحبال كقطعان العبيد في أفريقيا ، فمات منهم الألوف من جراء الأوبئة وشدة العطش والارهاق • واستمر العمل بهذه الصورة اثني عشر عاماً !

كان دي‌لسبس كما وصفه أحد معاصريه يتميز بطاقة عقلية وبدنية لا تعرف الكلل ، وأجمع الذين كتبوا عنه على أنه « ساحر » لفرط ما لديه من قدرة خارقة على الاقناع والثقة بالنفس[1] • انه كان كغيره من الجبارين الذين غيروا وجه التاريخ لا يبالون بالآلام البشرية إذ لا يترددون عن التضحية بالكثير من الارواح في سبيل الهدف الذي يسعون اليه • لقد استخدم دي لسبس كل وسيلة وقعت في يده لانجاز مشروعه ، وقد نجح فيه أخيراً ، فنسى التاريخ اسماء الألوف الذي وقعوا صرعى أثناء حفر القناة ، وبقى دى لسبس خالداً • وهذا هو ديدن التاريخ مع جميع الفاتحين العظام •

مات سعيد باشا في عام ١٨٦٣م فتولى حكم مصر مكانه ابن اخيه اسماعيل باشا • وكان اسماعيل هذا قد تلقى دراسته الأولى في باريس فأعجب بالحضارة الأوربية ايما اعجاب ، وحين تولى الحكم أراد أن يجعل مصر قطعة من أوربا • والمعروف عنه أنه كان مولعاً بالاسراف والبذخ حتى أغرق مصر بالديون ، ولكنه كان من الجهة الأخرى شديد الشغف بالعمران والبناء • يقول المؤرخ المصري رفعت بك : « من الحقائق المقررة الآن أن ما أنجزه اسماعيل باشا في مصر خلال سنوات حكمه الستة عشر فاق

---

(١) مجلة المصور المصرية ـ العدد الخاص ـ ٢١ تشرين الثاني ١٩٦٩م •

ما أنجزه أي ملك في أي قطر في العصور الحديثة ، فهو قد تفوق بما قام به في القاهرة والاسكندرية حتى على ما قام به لويس الرابع عشر في باريس • اذهب اينما شئت في القاهرة فلابد أن ينجذب نظرك نحو بناية فخمـة أو حديقة أو تمثال أو شارع عريض أو نافورة ، أو حياً من الأحياء كان قد خططه ونفذه اسماعيل باشا »[1] •

ومما تميّز به اسماعيل باشا هو أنه حبب سكنى مصر الى الاجانب من الاوربيين والامريكيين ، فكان يساعدهم ويؤيد مشاريعهم ويشجعهم عـلى توسيع تجارتهم ، فتقاطروا الى مصر أفواجاً[2] ، فأفادوا مصر واستفادوا منها كالخبازة الماهرة التي تأكل نصف ما تخبز على حد تعبير المثل الدارج •

وفي **١٧** تشرين الثاني من عام **١٨٦٩م** جرى الاحتفال بافتتاح قنـاة السويس ، فكان عدد المدعويين اليها ثمانية آلاف معظمهم من اوربا ملوكاً ووزراء وأدباء كبار ، وكانت نجمة الاحتفال أوجيني امبراطورة فرنسـا الحسناء • وقد بذل اسماعيل باشا في مظاهر الضيافة والاحتفاء ما أذهل عقول المدعوين وذكّرهم بأساطير ألف ليلة وليلة ، وبلغ ما انفقه في ذلك مليونا وأربعمائة ألف جنيه • وقد شكى أحد الوزراء المصريين من هذا الاسراف لأحد الوزراء الأوربيين قائلاً : « اننا نأكل أحجار الاهرام حجراً حجراً » ، فرد عليه الوزير الأوربي ضاحكاً : « لا تهتم يا صاحب السعادة ، سنقرضكم المال اللازم لتشتروا منا الاسمنت •• لاعادة بنائها ؟! » • وكانت هذه بداية مأساة الديون في مصر[3] •

كانت الخطوط البحرية التي تصل ما بين الشرق والغرب قبل افتتاح

---

(1) M.Rifaat bey ( The Awakening of Modern Egypt ) Bristol 1947 — P. 106.

(٢) جرجي زيدان ( المصدر السابق ) ج١ ص٦٧ •

(٣) مجلة المصور المصرية ـ العدد الخاص ـ ٢١ تشـرين الثاني ١٩٦٩م •

القناة تمر برأس الرجاء الصالح الذي يقع في جنوب افريقيا ، وعندما افتتحت القناة تحولت معظم تلك الخطوط اليها • ففي السنة الأولى من افتتاحها بلغ عدد السفن التي مرت بها ٤٨٦ سفينة ، ثم أخذ العدد يزداد سنة بعد أخرى • وفي عام ١٨٧٤م استطاعت شركة القناة أن تدفع للمساهمين أرباحاً قدرها عشرة ملايين فرنك[١] •

وقد استفادت مصر من هذا التحول في الخطوط البحرية استفادة عظمى ، فان مرور تلك الخطوط بها جعلها قريبة من الشرق والغرب معاً وصارت بذلك ملتقى حضارياً مهماً ، فازدهرت الطباعة والصحافة فيها كما ازدهر العمران • ولم يقتصر تأثير القناة على مصر وحدها بل شمل بلاد أخرى كثيرة ، وسنرى في الجزء القادم مبلغ تأثيرها في العراق •

---

(١) محمد عبدالرحمن برج ( قناة السويس في ١٠٠ عام ) ـ القاهرة ١٩٦٩م ـ ص٥٢ ـ ٥٤ •